الفصل الثالث

الشرق المتدين
والغرب التائه

الغرب يواجه المسلمين
والغربيون يرحبون بالحوار

رغم أحداث التصادم بين الغرب والإسلام فانّ الحوار بين الغرب والإسلام ظلّ قائماً باستمرار ومازال يأتي من كلا الطرفين ويعبّر عن رغبتهما باستمراره ، ففي الأيام التي تلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر وكانت أصعب اللحظات في العلاقة بين الإسلام والغرب، عقد جورج بوش الصغير اجتماعاً مع زعماء الجماعات الإسلامية في البيت الأبيض. وبرزت يومها إمكانية فتح حوار مفيد لكلا الطرفين. وفي ذلك اليوم قال الشيخ حمزة يوسف:

إن الإسلام هو الذي اغتيل في قصف تلك الأبراج. كما قدّم الرئيس لضيوفه غصناً من الزيتون تعبيراً عن الرغبة بالحوار والسلام. ثم اجتمع الرئيس بوش مع القادة الأمريكين المسلمين في أول حفل إفطار يحضره رئيس غربي مع الجالية المسلمة. وتبادلوا كلمات الغزل التي تعبّر عن الرغبة بالحوار والتفاهم. لكنّ ذلك الحوار لم يستمر، فاتّجه الطرفان بعد ذلك إلى تبادل الاتهامات، فيما قامت الولايات المتحدة باحتلال أفغانستان والعراق، وبدأت بتهديد سورية وإيران، وطوال تلك السنوات، ظلّت الشرطة الأمريكية تلاحق وتعتقل المسلمين الأبرياء داخل أراضيها وخارجها.

فالغرب ماض في سياسة مزدوجة فيها الحوار وفيها المواجهة مع المسلمين جميعاً. ومن شخصيات سياسية غربية مرموقة هناك تصدر انتقادات قذرة للإسلام ولأهله، وبنفس الوقت تصدر اعتذارات وتعبير عن الرغبة بالحوار، فالرئيس الأمريكي بوش يعلن ذات يوم بأنها حرب صليبية على المسلمين. ثم يعتذر ويستبدل عبارته. وليس ذلك إلا تحايلاً على المسلمين جميعاً.

صناعة الإسلام في الغرب

يبحث المسلمون في الغرب عن إيجاد كينونة إسلامية واضحة خاصة بهم ويرجع ذلك إلى سببين: أحدهما: الحاجة لإيجاد ملجأ بعيد عن العداوة المتزايدة داخل المجتمع الغربي تجاه المسلمين. وإن هذا الاتجاه السلبي قد تزايد بصورة كبيرة منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إذ تظهر الدراسات هذه الزيادة في العداوة قد أوضحتها جامعة كورنيل الأمريكية في ديسمبر عام 2004، والتي كشفت أن 44٪ من الأمريكيين الذين دخلوا ضمن هذه الدراسة يعتقدون أن الحكومة الأمريكية عليها تقييد الحريات المدنية للمسلمين الأمريكيين.

والسبب الثاني هو في أن يكونوا جزءاً من البعث الإسلامي المنتشر في جميع أنحاء العالم. وبالنسبة للكثيرين من مسلمي الغرب ، لكي تكون مسلماً ظاهراً للجميع فلابد من القيام بالاعتراض على الحركات العالمية التي تدين الإسلام. وإن جيل الشباب منهم يشعرون أن عليهم الاختيار بين أن تصبح جزءاً متكاملاً في المجتمع الغربي والذي يتطلب الموافقة على الأعراف الاجتماعية التي يجدونها شيئاً بغيضاً عن عقيدتهم، أو عليهم الانضمام إلى حملات البعث الإسلامي فى جميع أنحاء العالم، والكثير منهم يفضلون الاختيار الثاني. إن الدراسات الحديثة توضح هذه الاتجاهات. و إحدى الدراسات التي أجريت عام 2004 على يد البرفيسور إحسان باجبي من جامعة كنتاكي، أظهرت أن هناك تزايداً كبيراً في عدد المساجد بسبب زيادة عدد المقبلين على الصلاة في هذه المساجد. وتبين أنه في المتوسط فإن الشخص الذي يشارك في المساجد يبلغ من العمر 34 عاماً، وهو مهاجر منذ فترة طويلة متزوج ولديه أطفال ودرس في الجامعة وإلى حد ما ميسور الحال.
وحوالي الخمس هم من الجيل الثاني من المهاجرين وعلى العكس المسلمين في العالم الإسلامي الذين ينظرون إلى المساجد أساساً على أنها دور للعبادة فقد اكتشف باجبي أنه على الرغم من أن 58٪ من هؤلاء الذين أجريت عليهم الدراسة لا يرون ذلك ، فإن 42٪ ينظرون إلى المسجد على أنه مركز للتعليم والأنشطة. وإن معظم الذين قاموا بعملية المسح عليهم، يعتقدون أن الهدف الرئيسي من المسجد هو

إمداد الشباب بالمعرفة الإسلامية. لقد تغير دور المسجد كثيراً في الغرب ، فأصبح المسجد مكاناً للاختلاط بالمؤمنين الآخرين وعلى أنه مكان للتجمع التعليمي والاجتماعي.

وعند سؤالهم كيف يمارسون طريقة عبادتهم فإن هؤلاء الذين طبقت عليهم دراسة المسح قد انقسموا بين 38 ٪ يفضلون طريقة مرنة لتفسير النصوص المقدسة

ولصياغة هوية إسلامية جديدة، فقد رجع الشباب الأمريكي إلى التعاليم الأساسية للإسلام، وذلك من خلال دراسة القرآن والسنة، وهما أهم مصدرين للشريعة. وهذا ما يجعلهم يلتقون مع السلفية.

وأظهرت دراسات أخرى تصاعد العدائية ضد المسلمين. لقد قاموا بتخريب المساجد وكان الأطفال هم هدف التعليقات العنصرية في المدارس العامة. لقد عانى المسلمون التفرقة في المعاملة في أعمالهم، مما يؤدي إلى تصاعد الشعور بالاغتراب والقلق والخوف في صفوف المسلمين. وللتخفيف من تلك الآزمة قامت العديد من الجامعات بافتتاح فروع جديدة لتدريس الإسلام والتاريخ الإسلامي، ونرى ذلك في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. فقد تبين بأن جهل السكان بالإسلام كان أحد أسباب ظاهرة العدائية للمسلمين. وتقوم تلك الكليات إضافة إلى مؤسسات أخرى بندوات ولقاءات وحوارات للتعريف بالإسلام. ويميل قسم من المتعصبين المسلمين إلى معاداة حكومات بلدانهم الغربية . ففي أمريكا تيار يعتبر المساعدات الأمريكية المقدمة إلى منظمات أو حكومات إسلامية حراماً ويتوجب رفضها، ويبنى هذا الرأي على اعتبارها أموالاً قذرة. وكنتيجة لتلك الأوضاع الساخنة في الغرب يلاحظ تنامي تيار إسلامي جديد متشدد ويخشى أن يصطدم هذا مع الحكومات الغربية في المستقبل. وفي ألمانيا كانت الحكومة الألمانية والمؤسسات العديدة فيها تجد صعوبة في مخاطبة الكيان الإسلامي نظراً لتعدد المؤسسات والجماعات الإسلامية هناك وتعدد اتجاهاتها ومواقفها. وفي نيسان 2007 اجتمع بضعة آلاف من زعماء الجماعات الإسلامية المتعددة في ألمانيا واتفقوا على توحيد مؤسساتهم كلها ضمن مؤسسة واحدة وإدارة واحدة وتحمل رأياً واحداً، ويعتبر هذا الاتحاد الإسلامي في ألمانيا هو الاول من نوعه على الصعيد العالمي كله. إذ بين تلك الجماعات التي

اتحدت اختلافات منهجية تقليدية. فمنها الجماعات السلفية التي تتناقض مع الصوفية ومنها الشيعية والإخوانية.

مواجهة بين الإسلام والغرب

إنّ مايحدث بين الإسلام والغرب في السنوات الأخيرة يمكن تسميته بأدلجة متبادلة للعلاقات سلباً. وهذه الأدلجة مستمرة بين الطرفين وهي تتصاعد كل يوم، ويتم تغذيتها باستمرار وبكثافة بحيث لايظهر أيّ تأثير يذكر لمحاولات البعض القليل برتق التمزقات وبمحاولات التقريب بين الجانبين.وإن الجهود والمحاولات التوفيقية بين الجانبين تنطلق من الجانب الغربي بقدر ماتنطلق من جانب المسلمين، وهذا يعكس الرغبة الغربية الحقيقية في التوفيق بين المسلمين والغرب كله. ورغم تبادل هذه المحاولات التوفيقية الضعيفة فان موقف العدائية والاتهامات، وهو السائد، يكبر ويتعاظم وتتم تغذيته في أوساط الطرفين.

وماهذه إلاّ ثقافة تسميم متبادلة تتسم بالإنكار والتشكيك. إذ يقوم كل جانب بنكران الآخر تماماً وبالتشكيك به. وفي الوقت الذي يتهم المسلمون الغرب بأنه يمتلك معايير ازدواجية ويتعامل بها مع العرب والمسلمين فإن المسلمين أنفسهم يمتلكون تلك المعايير ويتعاملون بها مع الغرب. حتى أصبحت هذه المعايير مشتركة عند الفريقين ومتبادلة.فالمسلمون عموماً يسكتون عن إدانة أعمال العنف التي تستهدف الغرب، (ونقصد بها تفجيرات لندن ومدريد) ورغم صدور بعض التصريحات عن المؤسسات الرسمية من هنا وهناك فإن الرأي السائد في الشارع الإسلامي وهو الأكثر أهمية وهو الذي يدلّ على الحقيقة السائدة، وهو السند المعبّر عن فكر الأمة الإسلامية هذا الرأي يسكت عن تلك الاعتداءات ويبررها ضمناً على أنها إحدى مستلزمات معركة الإسلام مع الغرب.

تصوير الغرب على أنه معاد الإسلام

لايتوقف المسلمين عن ابتداع النظريات والطروحات التي تؤكد معاداة الغرب للإسلام. ويتوقف المسلمون عند كل صغيرة وكبيرة، فمسألة الحجاب في فرنسا كتب

عنها الإسلاميون ملايين الصفحات ومازال الباحثون الإسلاميون يقفون عندها باستمرار. وقد وضع أحدهم كتاباً كبيراً بالفرنسية يعرض لفصول القضية وأبعادها.ويعتبر المسلمون عموماً أن كل من يكتشف جذور فتنة غربية تدل على عدائه للإسلام مبدعاً وسبّاقاً.وفي الوقت نفسه فالمسلمون ينشغلون برفض الحادث إعلامياً وخطابياً وكلامياً. ففي شباط 2007 ابتدأت إسرائيل بحفريات تحت جدار الأقصى. ومنذ لحظة دخول الجرافات الصهيونية، قامت الفضائيات العربية بتحريض الشارع الإسلامي على الاستنكار، فاشتعل الاستنكار وتضخم وقيل في ذلك الكثير وكتب عنه الكثير وسيكتب عنه إلى ما شاء الله. لكن بعد مضي أشهر على ذلك الاعتداء على المقدسات الأثرية الإسلامية ماذا فعل المسلمون ؟ لاشيء بالطبع. وهذا يعكس المنهجية العربية المتوارثة والتي ترتبط باللغة العربية نفسها، من حيث أنها لغة أطناب وخطابة وجمالية. فكان الرد العربي والإسلامي لغوياً، وخطابياً فصيحاً، تماماً كفصول التاريخ الإسلامي القديمة، حيث أبدع الفقهاء والمدوّنون بتحليل ما تم تحليله ثم بنقد التحليل الجديد، ثم بانقسام الرأي حول النقد نفسه...إلخ.

والغرب هو بشر وكيانات ومؤسسات بشرية مدنية، ويمكن التحاور معها والتوصل بالحوار إلى نتائج مرضية في كل صغيرة وكبيرة، ويستطيع المسلمون مؤسسات وأفراد وهيئات وحكومات أن يتحاوروا مع الغرب بهدف إيجاد حلول للمشاكل الطارئة. كمشكلة الحجاب الإسلامي في فرنسا، مثلاً، ولكن لجوء البعض إلى تصوير الغرب على أنه العدو القديم والدائم للإسلام وللمسلمين. والاكتفاء بهذه الإجراءات كسياسة إسلامية ثابتة، فذلك لا يجدي نفعاً. بل يزيد من حدة الخلاف بين الإسلام والغرب.

تصوير الإسلام على أنه معاد للغرب

وفي الغرب وبسبب أحداث السنوات الأخيرة تم تهويل صورة مفترضة وهي تشير إلى العدائية الإسلامية التاريخية للغرب المسيحي. وتم تهويل حجم الخطر الإسلامي المفترض فرأى الساسة بأنه شيوعية جديدة وحلف قوي جديد يهدد الغرب تهديداً حقيقياً. وتقوم الصهيونية بتهويل صورة الإسلام وبجعله خطراً كبيراً على

الغرب كله. كما تنشط بعض الكنائس المسيحية الصهيونية بتخويف أبناء الغرب من الإسلام والمسلمين.

والحقيقة أن الإسلام نفسه كشريعة وفكر ديني لايمتلك بداخله أي نوع من العدائية تجاه أحد بل هو يحمل لجميع البشر غصن الزيتون، ولا يمكن أن نستنبط من الإسلام أو من القرآن الكريم أو الحديث النبوي مفاهيم تشرّع للمسلمين العداء للغرب. بل سنجد فيها ما يدعونا للتعاون مع الغرب والحوار معه. واعتماداً على مفهوم معاداة الغرب للإسلام نجح المسلمون في خلق مصطلح جديد، وتمت إضافته إلى القواميس اللغوية والموسوعات السياسية العالمية وصرنا نسمعه في كل يوم، وهو مصطلح إسلاموفوبيا، والذي يعني كره الإسلام وممارسة العدائية ضد الإسلام. كما ويسعى المسلمين في الغرب إلى إصدر قوانين حكومية تجرّم من يمارس الإسلاموفوبيا. وقد أصبح هذا المصطلح في الغرب معادلاً لمصطلح معاداة السامية. إلاّ أنّ معاداة السامية تعتبر جريمة يحاكم كلّ من تثبت عليه.

إساءات غربية للإسلام وللمسلمين

قال اللواء ويليام بويكين وهو يتحدث في اجتماع الكنائس: "إنّ المسلمين يعبدون إلهاً مزيفاً." وهذه تصريحات خطيرة تسيء للمسلمين ولدينهم. وتتّسم بالعدوانية والوقاحة والطائفية.

وفي الرابع من آب 2007 صرّح عضو متطرف في الكونغريس الأمريكي بأن الولايات المتحدة إذا ماهوجمت بأسلحة نووية من قبل متطرفين إسلاميين فإنها ستدمر الأماكن المقدسة لدى المسلمين. وهذا تصريح وقح ويتصف بالحقد والكراهية.

وعندما نسمع مثل هذه الاتهامات علينا أن نحاسب أنفسنا على سبب انطلاقها من الآخر وذلك قبل أن نحاسب الآخر ونتهمه. فقبل عقد من الزمن لم تكن مثل هذه الاتهامات والانتقادات توجّه إلى المسلمين ودينهم، حين لم يكن المسلمون يعلنون عن برامج معاداتهم للغرب.

وعكست تلك التصريحات وما تلاها صورة العدائية المتبادلة بين الفريقين. فقد ركزت حكومة بوش اهتمامها على كسب قلوب وعقول المسلمين الأمريكيين. وبنفس الوقت بدأت حملة مراقبة ومداهمة واعتقال لكثير من المسلمين الأبرياء في الولايات المتحدة، وحملة عدائية واسعة على مسلمي العالم كله. ومنذ بداية تلك الأحداث بدأت حياة المسلمين الأمريكيين تتعسّر. وأصبحوا يعيشون في غربة مقيتة وفي خوف وقلق دائمين.

ثمّ بدأ المسلمون ينظّمون كيانهم وأرسلوا طلبات لإقامة قاعات للصلاة في المدارس العامة تخصص لأبنائهم خلال فترات الاستراحة. وحول هذا الطلب يمكن طرح السؤال، هل تتوفر مثل هذه القاعات المخصصة للصلاة في كافة مدارس الدول العربية الإسلامية؟ ثم لنفترض بأننا قمنا بنقل هؤلاء الأمريكيين المسلمين إلى إحدى الدول العربية فهل سيطالبون سلطات حكومتها بإقامة تلك القاعات المخصصة للصلاة في المدارس ؟ وهل سيقاضونها إن لم تخضع لمطالبهم؟. بالطبع فإن ذلك لن يحصل على الإطلاق، لأنهم في بلدانهم الإسلامية سيتخلّون بعض الشيء عن مشاعر التميز والطائفية الدينية. وهذا يعني أنهم يمارسونها هناك بفضل الغربة وعدم التمازج مع الآخر.

لقد اتهم الإسلام في الغرب بأنه دين يحمل العنف في منهجه، وبأنه يقهر المرأة، ويسلبها حريتها. وتم تحميله مسؤولية كافة المشاكل التي تعاني منها الدول الإسلامية. وأمام تلك الأخطار الجديدة يفترض أن يقوم كل مسلم بالتعريف بالإسلام وبإعطاء الصورة الصحيحة عنه. والأهم من ذلك كله أن يكون هو مثالاً صحيحاً ونموذجاً إسلامياً حقيقياً. فلا تصدر منه تصريحات انفعالية تتسم بالعرقية أو الطائفية.

لكن مقابل ذلك رأينا المسلمين في الغرب كله يكرّسون التميّز والانعزال عن المجتمعات التي هم جزء منها. ويفصلون أنفسهم طوعاً عن الآخرين وينكمش التكتّل الإسلامي في كل منطقة ومدينة غربية. وداخل هذا التكتل ومما لاشك فيه أنهم سيزدادون عزلة وغربة. وسيزداد تبادل الكراهية بينهم وبين مواطنيهم المتعددين الانتماء.

أطروحة الصدام الحتمي بين الحضارات

من الأطروحات الأكثر شيوعاً اليوم تلك التي تشير إلى الصدام الحتمي بين الشرق المسلم والغرب المركّب العقائد. والتي تفسر الأصولية كرد فعل على الإمبريالية الغربية وتربطها بحركات أخرى منتمية إلى العالم الثالث. وعلى العكس تدافع عن أطروحة "صراعات التحديث" التي لا ترى الأزمة الحالية صراعاً بين الغرب والإسلام بمقدار ما هي نتيجة لصراعات داخلية تتبع من مسار التحديث في العالم الإسلامي.

فكرة أن العلاقات بين الغرب والإسلام لا تسير على ما يرام فكرة راسخة لدى مواطني العالمين كما يظهر ذلك استبيان مركز أبحاث (Pew) فغالبية من تم استجوابهم في البلدان الغربية كما في البلدان الإسلامية اعتبروا أنها سيئة. على سبيل المثال كان ذلك رأي 61٪ من الإسبان، لكن ما يلفت الانتباه هو أنه من بين كل العينات المستجوبة في 13 بلداً ظهر مسلمو إسبانيا الأكثر تفاؤلاً فقد اعتبر أكثر من نصفهم أنها علاقات جيدة. أبرز ما يأخذه المسلمون على الغربيين، حسب نفس المركز، هو كونهم أنانيين وعنيفين ومنحطين أخلاقياً، وفي المقابل يرى الغربيون في المسلمين أشخاصاً انفعاليين وعنيفين.

أما عن سوء الفهم المتبادل على أسس دينية صرفة فيظهر استبيان أجراه نفس المركز عام 2005 أن 63٪ من الأتراك و58٪ من المغاربة و57٪ من الإندونيسيين صرحوا بأن لديهم صورة سلبية عن المسيحيين والغالبية في كل البلدان الإسلامية لديها صورة سلبية عن اليهود. رأي الغربيين عن المسلمين ليس بهذا السوء لكن 51٪ من الهولنديين و41٪ من الألمان و34٪ من الأسبان يصرحون حسب الاستبيان المشار إليه بأن لديهم صورة سيئة عن المسلمين وتنخفض هذه النسبة بشكل معتبر في المملكة المتحدة والولايات المتحدة.

وبالتأكيد فإن وضع القيم والتصورات السائدة في البلدان الإسلامية والغربية في مواجهة يعتبر تبسيطاً إذ لا شك أن هناك قيما مشتركة، وفي بعض المجالات هناك اختلاف كبير بين البلدان الغربية نفسها كما يبدو ذلك الاختلاف أكبر بين العديد من البلدان الإسلامية. الديمقراطية مثلاً تمثل قيمة متقاسمة وبالرغم من أن بلداناً إسلامية

قليلة تنعم بها فإن أغلب المواطنين فيها يقاسمون الغربيين التوق إليها. وبحسب استبيان فإن نسبة من يؤيدون الديمقراطية تتراوح ما بين 85٪ و98٪ في العالم الإسلامي كما في العالم الغربي. على المستوى الديني الفروق كبيرة، وإذا كان المسلمون يتميزون بتدينهم فإن ما يستحق الملاحظة هو الفرق بين الأوروبيين والأمريكيين، ففي الرد على سؤال (ما أهمية الله في حياتك؟) في استبيان وضع الرقم 10 كحد أعلى والرقم 1 كحد أدنى جاءت النتيجة في أكثر من نصف البلدان الإسلامية فوق الـ 9، لكن نفس الأمر حصل في المكسيك وشيلي. الأرجنتين والولايات المتحدة جاءت فوق الـ 8 بينما جاءت إسبانيا تحت الـ 6 وهبطت كل من بريطانيا وفرنسا والسويد تحت الـ 3.5 . ولإثبات الفرق بين الدول الإسلامية نفسها فلا شيء أفضل من إلقاء نظرة على معدل الأبناء لكل سيدة: في أفغانستان واليمن أكثر من 6 وفي فلسطين أكثر من 5. أكثر من 4 أطفال لكل سيدة في العراق وباكستان والسعودية، لكن أيضاً طفلان فقط لكل سيدة في إيران وتونس. ويصل المعدل إلى فوق الاثنين بقليل في إندونيسيا والجزائر والمغرب. وللمقارنة نذكر بأن نفس المعدل في الولايات المتحدة هو 2 وفي فرنسا 1.9 وفي ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا 1.3 وإذن إلى حد بعيد تتقاطع قيم الحياة الخاصة فالأمريكيون والفرنسيون والإيرانيون يتقاسمون إلى حد ما نفس العقلية.

لكن وبالرغم من كل الدلائل التي تؤكد الاختلاف الداخلي في كلا العالمين فإنه لا بد من الاعتراف بأن سوء التفاهم الحالي بين الغرب والإسلام يمثل مشكلة خطيرة لأن العلاقة بين هذين الطرفين مفصلية بالنسبة لمستقبلنا. من خلال النظرة الأوروبية تحديداً لدى العلاقة مع الإسلام أهمية أساسية وذلك على الأقل لأربعة أسباب: قابلية التوتر في العالم الإسلامي، والعوز الأوروبي في مجال الطاقة وموجات الهجرة والذي أدى من بينها جميعاً إلى أن تتحول قضية العلاقة بين الغرب والإسلام إلى قضية بمنتهى الأهمية هو تدويل الإرهاب الجهادي الذي ترجم في عمليات لا تميز أحداً تستهدف المدنيين الغربيين. هذا العامل يطغى على العوامل الثلاثة الأخرى المشار إليها فالسباق نحو الإرهاب جعل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي أكثر دموية وكذا الأزمة اللبنانية والجزائرية، وفي هذه الأيام يحصل الشيء نفسه في العراق.

وإنّ مشاركة مسلمين أوروبيين في عمليات ارتكبت في أوروبا وانطلقت منها يعتبر العنصر الأكثر إثارة للقلق في العلاقة مع الجاليات المسلمة في أوروبا. الإرهاب الذي يدعي أنه استجابة لنداء إلهي بالدفاع عن الإسلام يشكل المظهر الأكثر عنفاً لحركة أوسع تسمى عادة بطرق مختلفة: الإسلاموية، الأصولية الإسلامية، والإسلام المتشدد، هدفها هو إخضاع المجتمعات المسلمة لحرفية النصوص الأولى للإسلام، وهذا الاتجاه للعودة إلى الأصول يصاحب رفضاً صارماً لغالبية القيم الأساسية للحداثة التي يقدمها الإسلاميون الأصوليون على أنها بدع قادمة من الغرب لا تتواءم مع الإسلام.

ولمعرفة حجم التهديد على الغرب الذي يشكله الإسلام الأصولي وتحديداً الإرهاب الجهادي لا بد من تحديد الجذور التي تشرح الظاهرة بشكل أفضل. وإذا بسطنا الأمر قليلاً فيمكن القول إنه تم اقتراح ثلاث أطروحات وهي صدام الحضارات، وردة فعل العالم الثالث، وصراعات التحديث.

إنّ الطرح الغربي المنحاز يفسّر الإرهاب الجهادي كتواصل، بأساليب جديدة، للتمدد الإسلامي الذي بدأ في زمن محمد [صلى الله عليه وسلم]. ويعتبر أن القاعدة تستأنف ضد الغرب الصراع الذي خاضه الأمويون والمرابطون والموحدون والعثمانيون. ويزعم هذا الطرح أن أيديولوجيا ابن لادن تجد لنفسها جذوراً في القرآن نفسه الذي يحوي نداء لقتال غير المؤمنين. ومن يتبنون هذه النظرية يعتبرون أن كل الإسلاميين لديهم نفس الهدف كما يرون في مسلمي أوروبا طابوراً خامساً كامناً. وعليه فيعتبر الغرب نفسه في صدام مع الإسلام كالصراع الذي خاضه الغرب ضد المعسكر السوفييتي.

لا شك أن الإسلاميين المتشددين وحتى الإرهابيين الجهاديين يؤسسون فكرهم على نصوص إسلامية مقدسة والنداءات الواردة فيها للجهاد ضد غير المؤمنين. من جانب آخر فإن التعاطف لدى قطاعات واسعة من المسلمين مع الأصولية الإسلامية وحتى مع "الإرهاب" الموجه ضد الغرب يفسر جزئياً بالشعور بالظلم تجاه الغرب وهو شعور ليس آتياً من فراغ.

الهوية الإسلامية والخطر الغربي

يرى الكثير من المسلمين في الغرب تهديداً مزدوجاً. في قوته الاقتصادية والعسكرية وخاصة في حالة الولايات المتحدة ومن جانب آخر في نفوذه الثقافي الذي ينظر إليه كمصدر للانحلال الأخلاقي، الذي يخشى المسلمون أن يمسّ أبناءهم. وأن 60٪ من الأردنيين والمصريين والأندونيسيين والأتراك والمسلمين البريطانيين يرون في الغربيين – حسب استبيان مركز (PEW) أناساً منحطين أخلاقيا لكن هذه النسبة تنخفض إلى الـ 30٪ في حالة المسلمين الإسبان والفرنسيين والألمان(7). ومقابل ما يراه المسلمون الغربيون من أخطار غربية على ثقافتهم ودينهم ومجتمعاتهم يطفو على السطح تمسكهم بالدين وقيمه، بل ويذهب البعض أكثر من ذلك فيتمسكون بالموروث الثقافي الدخيل على الإسلام. وآخرون يصبحون متطرفين أو حركيين. وينطبق رد الفعل هذا على المسلمين في العالم كله.

الإساءة للإسلام سياسة غربية

مازال الغرب يتحامل على الإسلام، وليس هذا التحامل نتاج مرحلة ما بعد ظهور القاعدة فحسب، بل هو قديم ومستمر ويعبّر عن سياسة الدول والشعوب الغربية. فيخج وزير ألماني ويطلب من كافة الصحف الألمانية أن تنشر الرسوم المسيئة للإسلام، وكأنه يقول: أسيئوا للإسلام ما استطعتم.

قامت مجلة "تايم "الأمريكية باختيار كاتبة عربية متسلقة في أمريكا كواحدة من أهم مئة شخصية في العالم، علماً أنها لم تكن معروفة من قبل. وما أن ظهرت وفاء سلطان هذه في حوار تلفزيوني على الجزيرة وأساءت للإسلام والمسلمين وثقافتهم حتى تم اختيارها على الفور ضمن قائمة المئة شخصية الأكثر تأثيراً في العالم. وقد بررت المجلة اختيار الكاتبة العربية تلك "لأنها تمتلك الشجاعة" في مواجهة قيم وثقافة مجتمعها .وكأن الغرب يقول للمثقفين العرب: "إذا أردتم أن تحظوا برعايتنا ودولاراتنا وجوائزنا القيمة، فما عليكم إلا أن تنسلخوا من جلودكم، وتنقلبوا على ثقافتكم وحضارتكم ومقدساتكم، وتشتموهما بأقذع

الأوصاف، وتخونوا أمتكم.

ما إن يظهر كاتب أو صحفي أو ناشط عربي يرجم العروبة والإسلام، وينال من المقدسات والثقافتين العربية والإسلامية حتى تتهافت عليه بعض المنظمات ووسائل الإعلام الغربية، بحيث يصبح بطلاً دولياً بين ليلة وضحاها، علماً بأنه يكون نكرة لم يسمع به من قبل سوى زوجته، وربما أولاده. لكن مع ذلك فإنه يصل إلى العالمية بسرعة البرق، ويصبح مادة دسمة لوسائل الإعلام الغربية التي تفرد له مساحات كبيرة على صفحاتها الأولى، وتبدأ المعاهد ومراكز الدراسات والبحوث والجامعات الغربية بالتهافت عليه كي يتكرم عليها بمحاضرة تسيء للإسلام، وتتسابق بعض المراكز الغربية لمنحه الجوائز التقديرية. ناهيك عن أن الصحف والمجلات الغربية الكبرى تختاره كواحد من أهم الشخصيات المؤثرة في العالم أو تختارها.

هناك ميل غربي صارخ لتبني النماذج العربية والإسلامية المارقة. فقد أطلّت علينا وسائل الإعلام الغربية ذات يوم بخبر هروب الكاتبة البنغالية تسليمة نسرين من بلادها خوفاً من القتل بتهمة الإساءة إلى المقدسات. وقد تلقفت الأوساط الإعلامية والثقافية الغربية خبر تسليمة، وراحت تطبل وتزمر له. وقد غدت الكاتبة البنغالية المارقة المغمورة بين ليلة وضحاها حديث الشارع الغربي، وأمست الدول الغربية تتسابق على منحها حق اللجوء. وهي التي تطاولت على دينها وسخرت من ثقافة أبناء جلدتها؟

وقد أصبحت ناشطة صومالية "محبوبة الغرب" لمجرد أنها تطاولت على دينها، فراح السياسيون الغربيون، وخاصة في فرنسا، يتسابقون على منحها الجنسية والامتيازات، علماً أن أقرانها من المسلمين الصوماليين في أوروبا لا يحظون إلا بالفقر والفاقة والتمييز العنصري.

وفي الولايات المتحدة يحظى أحد الكتاب العرب بمكانة عالية جداً، فقط لأنه أصبح عدواً للعرب والمسلمين، ولا هم له إلا النيل من ثقافته العربية والإسلامية ورجمهما في كتاباته ومحاضراته، مع أنه في محل منبوذ في العالم العربي، وينطبق الأمر ذاته على الأصوات "العربية" التي ظهرت في الآونة الأخيرة، وراحت تكيل

الشتائم والإهانات للعرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا. وقد أصبح بعضها بين لحظة وأخرى محط اهتمام وسائل الإعلام ومراكز الدراسات والبحوث الغربية، لا لشيء إلا لأنها تطاولت على الإسلام والمسلمين والدين الحنيف، ووقفت إلى جانب الصحف الغربية التي أهانت المقدسات الإسلامية، وطالبت بإعادة نشر الرسوم المسيئة للإسلام .

لا شك في أننا بأمسّ الحاجة إلى دعم المجتمع المدني الغربي في شتى المجالات. لكن المشكلة أنه لا يساعدنا إلا فيما يخدم أغراضه ومصالحه وفيما يتعارض ويؤذي مصالحنا وثقافتنا.

ومما يزيد في شكوكنا ببعض النماذج المحتضنة غربياً أيضاً أن الكثيرين منهم يجارون الأهداف الغربية، وإلا لماذا لا يتحلون بالشجاعة ذاتها للتصدي للقيم والمفاهيم الغربية؟ لماذا يجبنون عندما تذكرهم بقذارة المشاريع الغربية في بلداننا؟ وبدلاً من فضحها يبدؤون بالدفاع عنها.

ليس كل المثقفين العرب الذين يحظون برعاية وتشجيع غربيين مارقين، لكنهم إذا أرادوا أن يبرئوا ساحتهم فعليهم أن لا ينشدوا البطولة في الغرب على حساب أهلهم وقضايا وهموم أوطانهم، ومقدساتهم، كما فعل كريستي ماهون في مسرحية "لعوب العالم الغربي The Playboy of the Western World " حيث يتفاخر البطل عندما يهرب إلى قرية مجاورة بأنه قتل والده، ودنس حرمة بيته. وفعلاً يُعجب به أهالي القرية الأخرى، ويرحبون به أجمل ترحيب على فعلته "البطولية". ونرجو ألا يكون مثل مثقفينا مثل كريستي الذي يكسب التصفيق خارج قريته على فعل شائن ودنيء.

الوحشية المتجذرة في أوروبا

يقول المحلل الأمريكي "رالف بيتيرس" إن سيناريو السيطرة الإسلامية على أوروبا تماماً بعيداً عن المستقبل كلّ البعد. وإن احتمال أن يكونوا على موعد مع الاستمتاع بالأمل في الاستحواذ على أوروبا عن طريق إنجاب الأطفال فهذا مستحيل كل الاستحالة، فإن المسلمين يعيشون في هذه القارة آخر أيامهم. فالغرب الذي انتبه

إلى خطرهم لن يستمرّ في احتوائهم على الإطلاق. بل إنه بدأ يرفضهم بقوة، وسيزداد هذا الرفض تباعاً. فالتنبؤات بالحصول على السلطة في أوروبا من طرف المسلمين هي تنبؤات تتجاهل التاريخ و الوحشية المتجذرة في أوروبا نفسها".

صحيح أنّ التاريخ الأوروبي حفل بالمجازر الوحشية الكثيرة. لكن رغم ذلك فنبوءة السيد رالف لن تتحقق، فقد أباد الأوروبيون آلافاً من المسلمين بعد هزيمتهم في الأندلس. وأبادت محاكم التفتيش آلاف من الأبرياء الآخرين. كما أن الحربين العالميتين أبادتا من الأوروبيين حوالي ستين مليوناً. لكنّ العصر قد تغير اليوم، والمفاهيم قد تغيرت. فالمواطن الغربي أصبح مدللاً والذكر أصبح مؤنّثاً كما يعترف بذلك الأوروبيين أنفسهم. وإن مساحة الحرية الكبيرة التي حصل عليها الفرد تمكّنه من رفض التجنّد في جيوش تمارس الإبادة. كما أن الحداثة والتطور والإعلام وغيره، كل هذا يكشف الحقائق لكل فرد ويبيّن الزيف والخديعة. فلم يعد من الممكن أن تقوم حكومة غربية بخدع شعوبها وبجرّهم إلى حرب أهلية إبادية. كما أن الغربي بصفته المسيحية بات أكثر تفهماً للإسلام وأهله. وبات يحكّم المسيحية في أعماله أكثر من قبل. فالإقبال الغربي الجديد على الدين يجعل الغربي أكثر تعاطفاً مع المسلمين بفضل اشتراكهم معه بأركان عقائد وإيمان. وإنّ خديعة الإبادة التي ابتلي فيها العقل الغربي المسيحي لن تكرر مرة أخرى ولن تنطلي على أحد بعد اليوم سيّما وأنها ارتبطت بالصهيونية.

التنبؤ بإبادة مسلمي الغرب

كثرت تنبؤات الغربيين بحدوث مواجهة كبيرة في الغرب بين مسيحييه ومسلميه. ويتحدث البعض عن توقعات بإبادة مسلمي الغرب أو تهجيرهم قسراً. وهذه التنبؤات تجعلنا نتفهمها بجدية ونعمل على الحيلولة دون وقوعها. لابدّ إذاً من تدخل عربي مسيحي وإسلامي ينحصر في مجال الفكر والدفاع عن الدين وأتباع الديانتين المسيحية والإسلامية. ولابد من نقل الحالة الاجتماعية المتآلفة بين الديانتين من داخل يسترسل المحلل الأمريكي في التنبؤ بمستقبل المسلمين الأوروبيين، فيرجّح احتمال إبادتهم التامّة على أيدي الأوروبيين أنفسهم.وفي هذا الصدد يصف أوروبا على أنها

المكان "**الذي تم فيه ابتكار وإتقان الإبادة الجماعية والتطهير العرقي**"، ويتنبأ بأن المسلمين "**سوف يكونون محظوظين إذا لم يتم إلا طردهم فقط، وليس قتلهم وإبادتهم**".

وتؤكد "كلير بيرلينسكي" على هذا الرأي في كتابها "*تهديد في أوروبا: لماذا أزمة القارة هي نفسها أزمة أمريكا*". هذا السيناريو يحتمل أن الأوروبيين الأصليين الذين لا يزالون يمثلون 95٪ من ساكنة القارة سيستيقظون يوماً ما ويلجؤون إلى فرض إرادتهم" وسوف يقولون: كفى! ويعيدون إقامة نظامهم التاريخي من جديد. هذا هو احتمال الإبادة الذي يتوقعه كثير من المراقبين الغربيين. لكننا رغم إدراكنا لطبيعة المواطن الغربي ولتاريخه الطويل في ممارسة الإبادة فلا نتوقع أن يمارسها مرة أخرى على مسلمي أوروبا. لأن أوروبيي القرن الواحد والعشرين ليسوا على الإطلاق مثل أوروبيي القرون الوسطى. المحلل الأمريكي رالف بيتيرس يرى بأن المسلمين سيتعرضون للإبادة في أوروبا قريباً. ويستدلّ على رأيه بالكثير من الأدلّة والشواهد. والحقيقة هي أن بين المواطنين الأوروبيين من يرجّح هذا الاحتمال الخطير. لكنّ ذلك سيبقى حبراً على ورق وليس لتلك النبوءات مكان في التاريخ المستقبلي.

محاولة نشر الأسطورة في الثقافة الإسلامية

انتشرت في السنوات الأخيرة في المجتمع العربي عقائد وأفكار تحمل ظاهراً صفة الإسلامية، لكنها في حقيقتها لا تمتّ إلى الإسلام بصلة، وإنما هي أساطير من صنع الصهيونية العالمية، وإن هذه الأساطير إلا نوع من الأسلحة الموجّهة ضدنا. ويغفل من ينشر هذه الأساطير من مواطنينا ويدافع عنها بأنه بذلك يقوم بالدفاع عن الصهيونية نفسها. وكلنا يذكر كيف قام الغزاة الأمريكيون وأعوانهم باقتحام متحف بغداد وبتدمير قسم من آثاره التي هي هوية العراق التاريخية، وقاموا بسرقة كنوزه بهدف تجريد العراق من ثقافته التاريخية ومن هويته العريقة. وما ذلك الفعل إلا جزءاً من المشروع الصهيوأمريكي الذي يسعى لتجريد العراق من ثقافته وعلمانيته وفكره. وإحلال ثقافة الأسطورة الخرافية محلها. ويتعين علينا اليوم أن

نتنبه إلى الغزو الأسطوري الكبير والمتعدد الأشكال والذي يصل بحنكة إلى كافة الأفراد ويغزو العقول بهدف تشويه الفكر والقيم والثقافة. ومن بين أشكال هذا الغزو: الفضائيات الكثيرة المدعومة من الغرب والتي تسعى لتسطيح الفكر. تلك التي تنشر فكر الأسحار والأرقام المسحورة والشعوذات وتحاول أن تجعل من الإسلام دين سحر وشعوذة وأرقام مسحورة وعلاجات سحرية. ويضاف إلى تلك الفضائيات الموجهة الى أهل السنة فضائيات أخرى موجهة إلى الشيعة وتلك الفضائيات الموجهة من الغرب توجه حرباً طائفية ضد السنة وتمجّد المناحات الشيعية وتنقل على الدوام من بكائيات الحسينيات وأعمال اللطم والدم والحزن. وتلك أيضاً غرضها تسطيح الفكر الديني وجعله فكر وقيم أسحار وشعوذات وتحاول إفراغ الإسلام من مضامينه العظيمة. وبنفس الوقت تشعل فتنة شيعية سنية. والجدير بالذكر بأنّ الشيعة ودولة إيران لا ترضى عن أفعال هذه الفضائيات المشبوهة.

أشدّ المسيحيين تعصّباً يعترفون بالقرآن

يقول السير توماس أرنولد في كتاب (الدعوة إلى الإسلام ص 162): "إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار Alvar الإسباني الذي عرف بتعصبه ضدّ الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به".

ونحن نلمس دوماً اعتراف المسيحيين بحقيقة القرآن وحقيقة نزوله على سيدنا محمّد عليه السلام. فرئيسة وزراء بريطانية الأسبق تحدثت ذات مرة عن المسلمين وقالت بأنّ الإسلام دين سماوي. ونسمع مثل هذا الاعتراف في كل يوم تقريباً. وهو يحمل اعتراف ضمني بحقيقة الدين الإسلامي وهذا يعني اعتراف بأنّ الإسلام دين سماوي أي دين حق، وبأنّ القرآن منزّل من عند الله سبحانه. واعتراف بنبوة محمّد. وإنّ من يعتقد ضمناً بهذه المبادئ يكون بحسب العقيدة الإسلامية مؤمناً بالدين الإسلامي. ومن هنا فإنّ ما بين أولئك المسيحيين وبين الإسلام ليس سوى خيطٍ رفيع من الاختلاف، تماماً كما قال النجاشي ملك الحبشة للمسلمين.

مسيحيون يعترفون بصوابية القرآن

يقول المفكر اللبناني جورج حنّا في (قصة الإنسان ص 79): "لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء أكان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزّلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة".

نصراني يقرّ بنقد القرآن للثالوث

إميل ديرمنجيم مستشرق فرنسي، ومن آثاره: (حياة محمد) 1929، ويكتب فيه ص 131:

"للمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهرًا عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى [عليه السلام] كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يَذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح [عليه السلام] ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم."

التعرّف على القرآن يقنع المسيحي بمحمّد

يقول جان جاك روسّو في العقد الاجتماعي: من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدًا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب لخرّ

ساجدًا على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار."

تربية الغربي هي السبب في نقده للقرآن

يقول المفكر الفرنسي هنري دو كاسترو: آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشيّ الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة مريم وما جاء في ولادة يحيى وصاح القس أن هذا الكلام وكلام عيسى جاءا من مورد واحد». لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب. ثمّ كيف يعقل أن النبي ألّف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في كانت في تلك الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية، وما كان يعقلها إلا القوم العالمون... ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب."

القرآن الكريم يحاور أهل الكتاب

لقد حافظ أسلوب الحوار الإسلامي مع أهل الكتاب على مرّ التاريخ، حافظ على التعايش السلمي الذي تؤكده الآية الكريمة (تعالوا إلى كلمة سواء). وما شنّ المسلمون يوماً حرباً دينية ضدّ غيرهم من الاديان السماوية، لكنهم واجهوا دائماً حرباً دموية باسم الصليب ضدّهم استمرت قروناً متمادية، ويعتقد بعض المسلمين بأنها لاتزال مستمرة حتى يومنا هذا.

غير أن الموقف الإسلامي العام لايزال كما نصّ عليه القرآن: (تعالوا إلى كلمة سواء). والظاهرة الرائعة فى هذا المجال أن شوكة الإسلام كلما قويت ازدادت قوة الدعوة إلى الحوار مع أهل الكتاب، مما يدلّ على أنه حوار ينطلق من موقف مبدئي لا من موقع ضعف. فالقرآن الكريم وضع للمسلمين حدّاً لن يستطيعوا أن يتجاوزوه مهما علت شوكتهم. فإذا امتلكوا قوة وقدرات وأسلحة وقارات سيظلون يدعون إلى كلمة سواء كما تفرض عليهم الآية الكريمة.